حكايات ألف ليلة

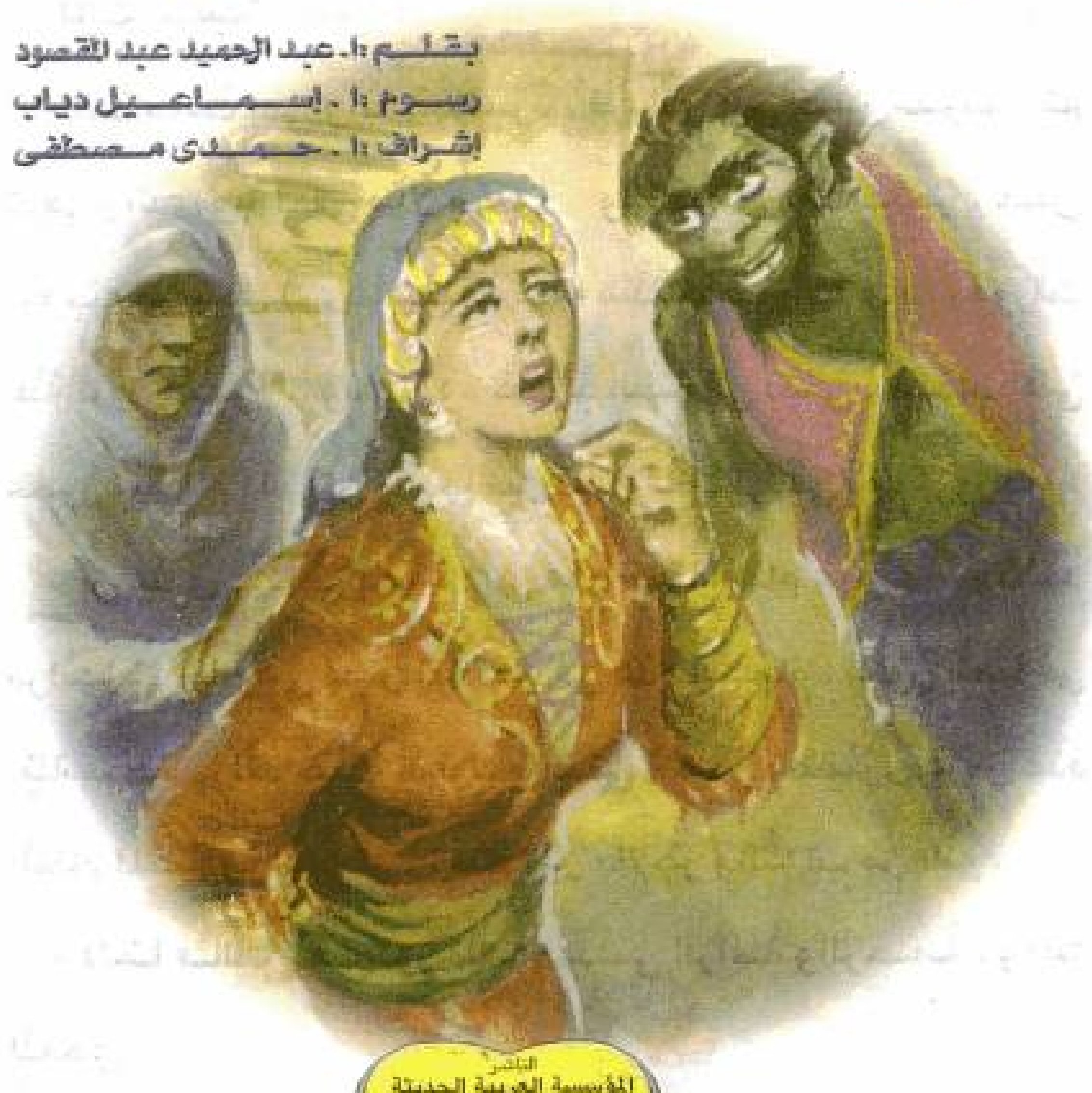
11

العجوز والسيدة الثانية

بقلم: أ. عبد الحميد عبد المقصود

رسوم: أ. إسماعيل دياب

إشراف: أ. حمدي مصطفى



الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

لمَّا انْتهَتْ صاحبةُ الْبيتِ مِنْ سَرْدِ حِكايَتِها الْغَريبةِ ، تعجَّبَ الْخليفةُ ، وتعجَّبَ الْحاضرونَ ، ونظرَ الْخليفةُ (هارونُ الرَّشيدُ) إلى السَّيِّدةِ الثَّانِيةِ قائِلاً :

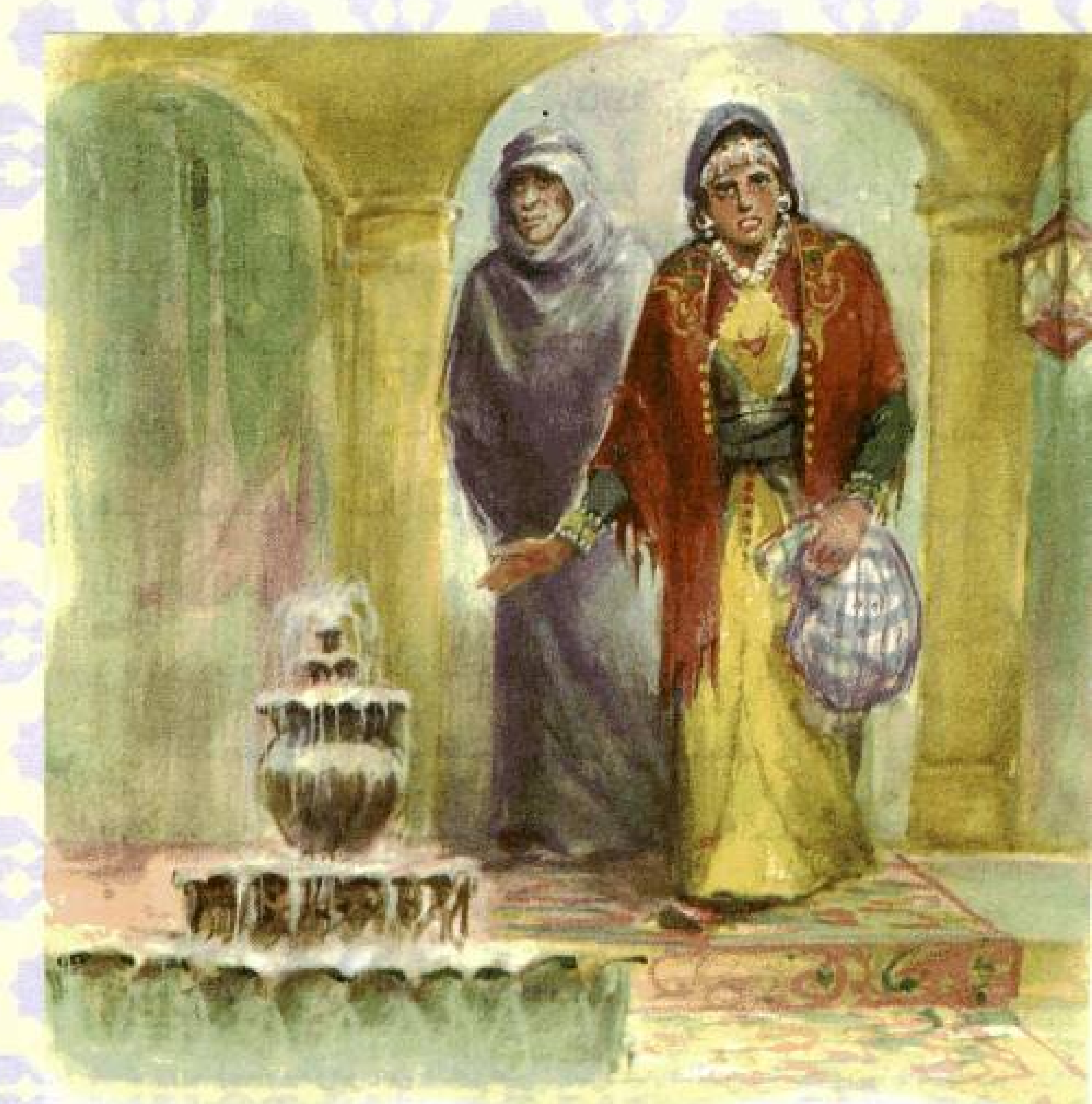
- وأنْتِ ماهِىَ حِكايَتُكِ ، وما هُوَ سببُ الضَّرْبِ الذى رأيْناهُ على جَسَدِكِ ؟!

فقالَتِ السَّيِّدةُ الثَّانيةُ :

- لقدْ ماتتْ أُمِّى وأنَا صغيرةٌ ، فربَّانى أبى حتى كَبرْتُ .. ثم تُوفِّىَ وَالدِى وتركَ لى مالاً كثيرًا .. ولمْ يمْضِ وقْتٌ كثيرٌ ، حتى تزوَّجْتُ مِنْ رَجُلٍ ثَرِىٍّ ، فعِشْتُ معه سَنَةً كامِلَةً ، ثم ماتَ ، فورِثْتُ عنْهُ ثَرْوَةً كبيرةً .. وذاتَ يوْمٍ كُنْتُ جالسةً فى بَيْتِى ، فدخلَتْ علَىَّ عجوزٌ شَمْطاءُ ، لَمْ أكُنْ رأيْتُها قبلَ ذلِكَ وقالتْ لى فى تَوَسُّلٍ ورَجَاءٍ :

- إنَّ عِنْدِى بِنْتًا يتيمَةً ، وفى هذِهِ اللَّيْلةِ يُقَامُ عُرْسُها ، ويُعْقَدُ قِرانُها ، وأنَا وهِى ليْس لنا أحدٌ فى هذه الْحياةِ ، يكونُ مَعَنَا فى لَيْلَةِ فَرَحِنا .. لقدْ جِئْتُ أدْعُوكِ ياابْنَتِى ، حتى تَحْضُرِى عُرْسَ هذه الْفتاةِ المكْسُورةِ الْخاطِرِ ، فتفوزِينَ بالأَجْرِ والثَّوابِ مِنَ اللَّهِ ..

- فلمَّا قالتِ الْعجوزُ ذلكَ أخَذَتْنِى الرَّأفَةُ والرحمَةُ ، وقُلْتُ للْعجوزِ :



اطْمئِنِّي ياخَالَةُ ، سوْفَ آتى معَكِ ، وأَحْضُرُ عُرْسَ ابْنَتِكِ كأنَّنى أُخْتُها ، سوْفَ أُحْضِرُ لها بَعْضَ مَصَاغِى ، وأَجْمَلَ ثِيابى ، حتّى تَرْتدِيهَا فى هذه اللّيْلَةِ ، وسوْفَ أُزَيِّنُها بنَفْسى .. ثم نهَضْتُ وارْتَدَيْتُ أجملَ ثِيابى ومَصَاغِى ، وأَخَذْتُ بعْضها معى ، ثم خَرجْتُ

أَسيرُ معَ الْعجوزِ ، فَخرجْنَا مِنْ زُقَاقِنا ، وسِرْنا فى شوارِعِ بغْدَادَ وطُرُقَاتِها ، حتى وصلْنا زُقاقًا فخْمًا ، فى حىٍّ من أرْقَى أحْياءِ بَغْدَادَ ، فَدَخَلْناه وسِرْنا فيه ، حتى وصلْنا إلى بوَّابةٍ فَخْمةٍ عليها قبَّةٌ مِنَ الرُّخامِ ، وخلفَ تلْكَ الْبوَّابةِ قصْرٌ فَخْمٌ مُرْتفعُ الْبُنْيَانِ ، حوْلَه حَدائِقُ ذاتُ أشْجارٍ وثِمارٍ وأنْهارٍ ، وطرقَتِ الْعجوزُ الْبابَ ، ففتَحَ الْبَوَّابُ فى الْحالِ ودخلَتِ الْعجوزُ تتقدَّمُنى وأنا أتعجَّبُ منْ ذلكَ وأقُولُ فى نَفْسى :

- هلْ هذهِ الْعجوزُ الْبائِسَةُ تَمْتَلِكُ هذا الْقَصْرَ ؟!

وعنْدما صِرْنا داخِلَ الْقَصْرِ ، رأيْتُ مِنَ التُّحَفِ والأثاثِ والرِّياشِ ما لا عيْنٌ رأتْ ، ولاخطرَ على قلْبِى مِنْ قَبْلُ ، ولاتَخَيَّلْتُ أنْ أراهُ ..

ومَشَيْنا أنا والْعجُوزُ فى دهاليزِ الْقصْرِ ، حتى وصلْنا إلى قاعةٍ فخْمَةٍ ، مَفْروشةٍ بالْحريرِ ، ومُضَاءَةٍ بالشُّمُوعِ والْقناديلِ ، وفى صدْرِ الْقاعَةِ سَريرٌ مِنَ الْمَرْمَرِ ، مُرَصَّعٌ بالدُّرِّ والْجوْهَرِ ، وعليْهِ نامُوسيَّةٌ مِنَ الْحريرِ ، وما إنْ دخَلْنَا الْقاعَةَ ، حتى خرجَتْ مِنْ خلْفِ النَّامُوسيَّةِ فتاةٌ غايَةٌ فى الرَّوْعَةِ والْحُسْنِ والْجمالِ ، وما إنْ رأتْنى ، حتى رحَّبَتْ بى قائِلَةً :

- أهْلاً وسهْلاً ومَرْحَبًا بكِ ياأُخْتِى .. لقدْ آنسْتِنى وشَرَّفْتِنى



وجَبَرْتِ خَاطِرِى ..

فرددْتُ عليْها التحيَّةَ بأَحْسَنَ منْهَا ، وتعَجَبْتُ فى نفْسِى قائِلَةً :

- هلْ مِنَ الْمَعْقُولِ أنْ تكونَ هذهِ الصَبِيَّةُ هى الْيتِيمَةُ التى حدَّثَتْنِى عنْها الْعَجُوزُ ؟! هلْ مِنَ الْمَعْقُولِ أنْ يكونَ ذلك الْقصْرُ قصْرَها ؟! وهلْ مِنَ الْمَعْقُولِ أنْ تكونَ اللَّيلَةَ هى لَيْلَةُ عُرْسِها ؟! أنَا لاأرَى أيَّةَ مظاهرَ تُوحِى بذلكَ .. ولمْ يُطلْ تعجُّبِى كثيرًا ، لأنَّ الْفتاةَ ، التى لاحظَتْ حيْرَتِى بادرَتْنِى قائِلَةً :

- اعْذُرِينى على أنِّى لَجأْتُ إلى هذهِ الْحيلَةِ ، حتَّى أحْضَرْتُكِ إلى هُنا ، ولكنْ لمْ يكُنْ أمامِى سِواها .. والْحِكَايَةُ باخْتِصارٍ أنَّ لى أخًا أحْسَنَ مِنِّى شَكْلاً وحُسْنًا ، وكانَ قدْ رآكِ فى أحدِ الأفْراحِ ، وأُعْجِبَ بكِ ، وهو يُريدُ أنْ يتزَوَّجَ مِنْكِ على سُنَّةِ اللَّهِ ورسُولهِ .. هذا إذا وافقْتِ على هذا الزَّواجِ ، ورَضيتِ بأخى زوْجًا لكِ ، بعْدَ رُؤْيَتِكِ له ..

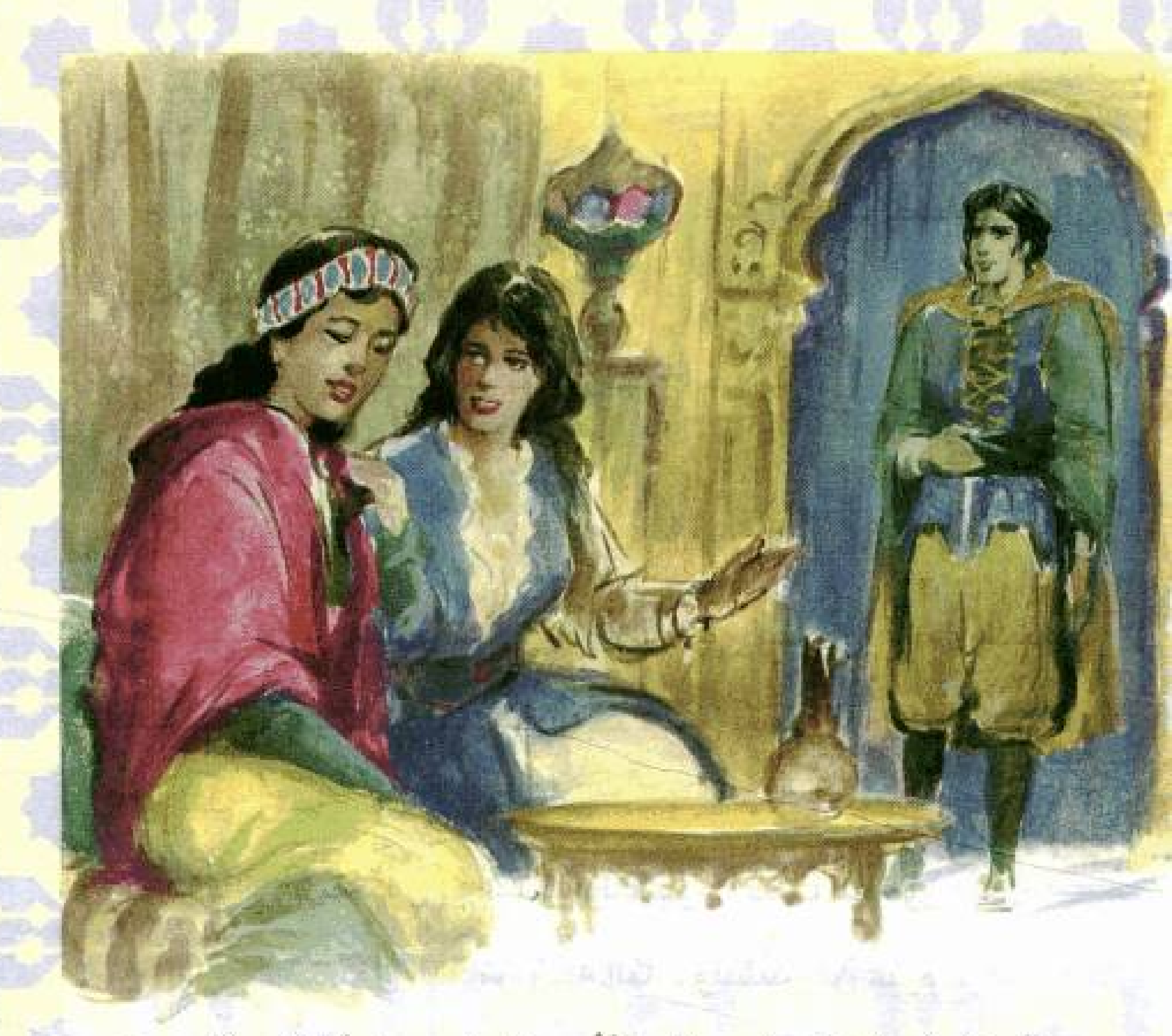
فلمَا سَمِعْتُ كلامَ الْفتاةِ ، ورأَيْتُ الْحيلَةَ التى احْتَالتْ بها حتَّى أحضَرَتْنى إلى الْقَصْرِ ، قلتُ لها :

- لابأْسَ .. أحْضِرِى أخَاكِ حتى أراهُ .. فما إنْ قُلْتُ حتى صفَّقَتِ الْفتاةُ بِيدَيْها ، فظهرَ شابٌ يَخْجَلُ الْقمَرُ مِنْ حُسْنِه وجَمالِه ، فلما نَظَرْتُ إليْه قلْتُ فى نَفْسِى : سُبْحانَ الْخلاَّقِ .. وقَرأَتِ الْفتاةُ نظَراتِ الإعْجابِ فى عيْنَىَّ ، فقالَتْ فَرِحَةً :

- هلْ نُحْضِرُ الْمأْذونَ والشُّهُودَ ، حتى يُعْقَدَ الْقِرانُ بِموافَقَتِكِ ؟!

فأوْمَأْتُ لها فى خَجَلٍ بالْمُوافقَةِ ، فصفَّقَتِ الْفتاةُ بيدَيْها ، فحضرَ الْمأْذونُ فى الْحالِ ومعَهُ أرْبَعَةُ شُهُودٍ .. وهكذا تمَّ عقْدُ قِرانى على ذلكَ الشَّابِّ ، فصِرْتُ له زَوْجَةً ..

وهكذا انتقَلْتُ منْ بَيْتى ، لأَعيشَ معَ زَوْجى فى قصْرِه .. ومضَتْ بناالأيَّامُ سَعيدةً ، حتى كانَ ذاتَ يوْمٍ اسْتَأْذَنْتُ زَوْجِى فى الْخروجِ



إِلى السُّوقِ لشِراءِ بعْضِ الْقُماشِ لى .. فأذِنَ لى زَوْجِى فى الْخروجِ إِلى السُّوقِ ، وكانتْ تلكَ الْعَجُوزُ ماتزالُ تقيمُ مَعَنا ، فاصْطَحَبْتُها معى إِلى السُّوقِ ، لأَنها كانتْ تعْرِفُ الْبضائعَ والأسْعارَ أَفْضلَ مِنِّى ، وتُجيدُ الْمُساوَمَةَ وانْتِقاءَ ماهوَ مُناسِبٌ لى ..

فلما وصَلْنا السُّوقَ اتَّجهتِ الْعَجوزُ إِلى دُكَّانِ تاجِرِ قُماشٍ قائِلَةً لى :

- صَاحِبُ هذا الدُّكَّانِ ولدٌ صغيرٌ ماتَ أَبوهُ وتركَ لهُ مالاً كثيرًا ..

فقُلْتُ لها :

- مالنَا ونُقُودِه .. نحْنُ نُريدُ قُماشًا .. ثم أشارَتْ لِصاحِبِ هذا الدكّانِ قائِلَةً :

- هاتِ أفْضَلَ ماعِنْدكَ منْ قُماشٍ لهذهِ الصَبِيّةِ ..

فقالَ الْفتى :

- سَمْعًا وطاعَةً ..

ثم أحْضَر لنا أفْخَمَ وأغْلَى قُماشٍ رأيْتُهُ فى حيَاتِى وعَرضَهُ علَيْنَا ، فانْتَقَيْتُ منْهُ عِدَّةَ أثْوَابٍ ، وأخْرَجْتُ كيسَ نُقُودى لأُقَدِّمَ له ثمنَهَا ، لكنْ الْفتى رفضَ ، وقالَ :

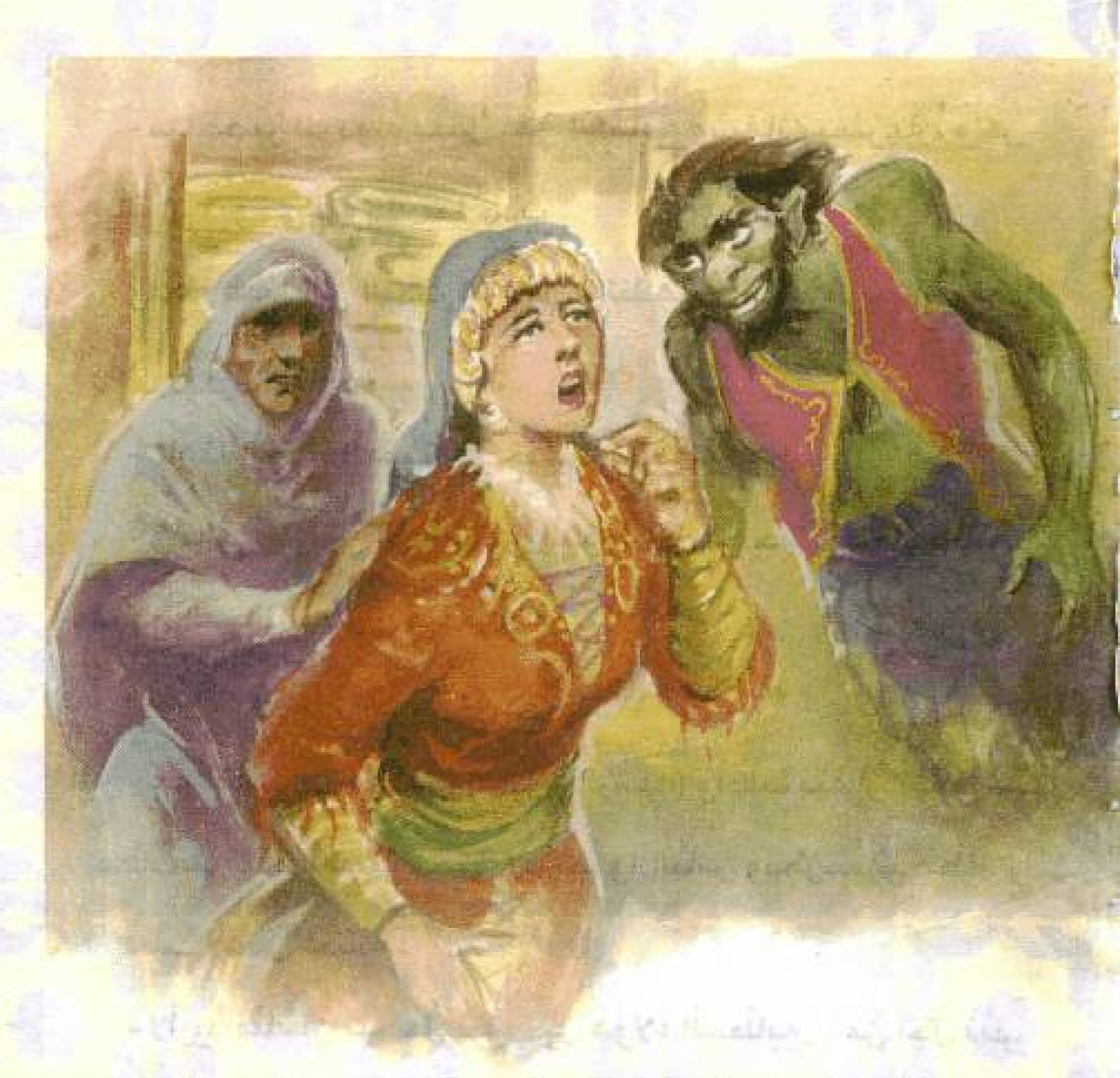
- هذه الْمرّةَ ستكُونُ إكْرامًا لكِ وللْعَجوزِ ، فقلْتُ للْعَجوزِ :

- إذا لمْ يأخُذْ ثمنَ الْقماشِ رُدِّيهِ إلَيْهِ ، ولْنَشْتَرِ منْ غيْرِهِ ..

فقالَ الْفتى :

- لاحاجَةَ بك إلى ردِّ الْقُماشِ ، وسوْفَ آخذُ ثمنَهُ ، ولكنْ بدلَ النُّقُودِ آخُذُ قُبْلَةً ..

فغَضِبْتُ غضبًا شديدًا ، وألْقَيْتُ الْقُماشَ فى وَجْهِهِ ، وأنَا أهُمُّ بالانصِرَافِ .. وفى تلْكَ اللَّحْظَةِ تحولَ الْفتَى إلى جِنِّىٍّ وهجَمَ علَىَّ فعَضَّنى بقُوَّةٍ فى وَجْهِى ، حى مَزَّقَ قِطْعَةَ لحْمٍ منْ خَدِّى ، فصَرَخْتُ



صرْخَةً قويَّةً منْ شدَّةِ الألمِ ، ثم أُغْمِيَ عليَّ ، فلمَّا أفقْتُ لمْ أجد أثرًا للدُّكَّانِ ، ووجَدْتُ الْعجوزَ بِجوارى حزينَةً منْ أجْلى وقالَتْ لى :

- ما دَفعَ اللَّهُ عنَّا منَ الْبلاءِ كانَ أعْظمَ .. قُومِى لِنَعُودَ إلى الْبيْتِ ،

فأشَرْتُ إلى الْجُرْحِ الْغائِرِ فى خدِّى قائِلَةً :

- وهذا الْجُرْحُ الْغائرُ فى خدِّى ، ماذا أفْعلُ فيه ؟! فقالتِ الْعجوزُ :

- سأُحْضِرُ لكِ دواءً يعملُ علَى الْتِئَامِه وشِفَائِهِ بسُرْعةٍ ، ولكنْ إيَّاكِ أَنْ تَبوحِى لِزَوْجِكِ بما حَدثَ ..

وهكَذَا عُدْنا إِلى الْبَيْتِ سَرِيعًا ، فتَظاهَرْتُ بأَنَّنِى مَرِيضَةٌ ، فلمَّا رآنِى زوْجِى قالَ لى :

- ماهَذا الْجُرْحُ الْعميقُ فى خَدِّكِ ؟! فقلْتُ لهُ :

- وأنا فى طريقى إِلى السُّوقِ الْيَوْمَ زاحَمنى جمَلٌ يحْمِلُ حطبًا ، فجرحَ الْحطبُ خَدِّى - كما ترى ..

فغَضِبَ زوْجى وقالَ :

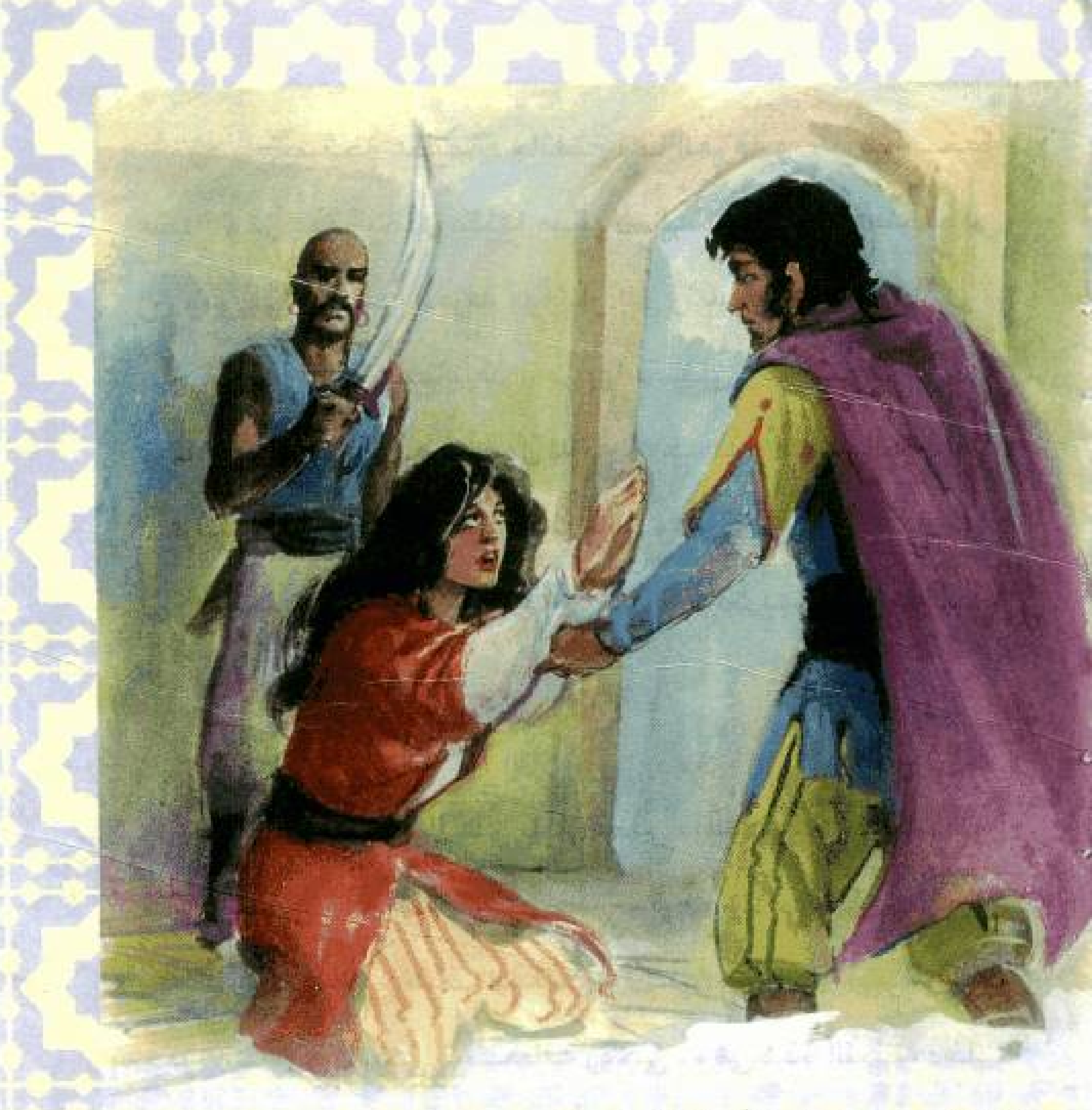
- غدًا أذهَبُ إِلىَ الْخليفَةِ (هارونِ الرَّشيد) وأَطْلُبُ مِنْهُ أنْ يَشْنُقَ كُلَّ حطَّابٍ فى هذه الْمَدِينَةِ ، حتى لايُزَاحِموا النَّاسَ ويَجْرَحُوهُمْ هكَذا ..

فقلْتُ لأُهَدِّئَ غَضَبهُ :

- لاأُريدُ منك أَنْ تتحمَّلَ ذُنُوبَ كُلِّ هؤلاءِ الْحطَّابينَ ، مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ هم بَريئُونَ مِنْه .. الْحقيقَةُ أنَّنى ركِبْتُ حِمارًا فتعثَّرَ وسقَطْتُ مِنْ فَوْقِه على الأَرْضِ ، فَجُرِحَ خَدِّى .. فقال :

- غدا أذْهَبُ إِلىَ الْوزيرِ (جَعْفَرِ الْبَرْمَكِىِّ) وأُقُصُّ علَيْه ماحَدثَ ، حتى يأْمُرَ بقَتْلِ كلِّ حمارٍ فى هذه الْمدينَةِ .. فقلْتُ له :

- هلْ أَنْتَ مُصِرٌّ على قتْلِ النَّاسِ كُلِّهمْ بسَبَبى ، وقدْ جرى



مَاجَرَى لِى بِقضَاءِ اللَّهِ (تعالَى) وقَدَرِهِ ؟!

فقالَ غاضِبًا :

- لابُدَّ مِنْ ذلك ، حتَّى أَعْلَمَ سببَ هذا الْجُرْحِ ، وإِذا اقْتَضَى الأَمْرُ قَتْلَكِ أَنْتِ أَيْضًا قَتَلْتُكِ ..

- وصاحَ صيْحةً عظيمةً ، فانفتَحَ بابُ الْغُرْفَةِ ودخلَ مِنْهُ سبْعةُ عَبيدٍ ، وكلٌّ مِنْهُمْ يحملُ سَيْفًا مسْلولاً ، فأشارَ إليهِمْ ، فسَحبُونى ورَمَوْنى فى مُنْتصَفِ الْغُرْفةِ ، وأشارَ إلى رئيسهِمْ قائِلاً :

- اضْرِبْها بالسَّيْفِ ياسَعْدُ .. مَزِّقْها نِصفَيْنِ ، ثمَّ ارْمُوها فى نهْرِ دِجْلَةَ ، فهذا جزاء كُلِّ مَنْ تُسَوِّلُ لهُ نَفْسُه خيانَةَ الأمانَةِ والْكذِبَ ..

فرفعَ الْعَبْدُ (سعْد) يدَه بالسَّيْفِ عالِيًا وقالَ :

- اسْتَعِدِّى لِلْمَوْتِ ، وإنْ كانَتْ لكِ حاجَةٌ فاذْكُرِيها حتى نَقْضِيَها لكِ ، قبْلَ أنْ يَنْقَضِىَ أجَلُكِ ..

فتوسَّلَتْ إِلَيْه قائِلةً :

- ياعَبْدَ الْخَيْرِ ، تَمهَّلْ علىَّ قَليلاً فَإنَّنى مَظْلومَةٌ وما جَنَيْتُ ذَنْبًا ، حتى أسْتحِقَّ عليهِ الْقَتْلَ ..

وتذكَّرْتُ حالى وكيْفَ انْتَقَلْتُ مِنَ الْعِزِّ إلى الذُّلِّ ، بغَيْرِ ذَنْبٍ جَنَيْتُهُ .. ورحْتُ أبْكِى مُسْتَعْطِفَةً زَوْجِى ، وفى هذه اللَّحْظةِ دخَلَتِ الْعَجوزُ وأخَذَتْ تَسْتَعْطِفُهُ هى الأُخْرَى ، ذاكرةً له ماحدثَ ، وأنَّنى لاذَنْبَ لى فيما حَدثَ مِنْ ذلِكَ الْجِنِّىِّ اللَّئيم ، وظلَّتْ تُلِحُّ علَيْهِ حتى قالَ لها :

- قَدْ عفَوْتُ عنْها وتراجَعْتُ عنْ قتْلِها ، ولكنْ لابُدَّ لى أنْ أتْرُكَ فى



جَسدِها أثرًا لايُمْحَى منْهُ أبدًا ..

وأحْضَرَ سوْطًا ، ثمَّ انْهالَ به علىَّ ضرْبًا ، حتى غِبْتُ عنِ الْوَعْيِ ، ثم أمَر عبيدَهُ أنْ يَحْمِلُونى فى أثْناءِ اللَيلِ ويُلْقُونَ بِى فى بَيْتِى ..

وهكذا أخذْتُ أُداوِى آثارَ ضرْبِ السِّياطِ على كتِفِى وأضْلاعِى ، عِدَّةَ شُهورٍ ، حتى شُفِيتُ ، لكنَّ آثارها ظلَّتْ باقيَةً حتى الآنَ ..

ثمُ تعَرَّفَتْ أُخْتى هذه صاحِبَةَ الدَّارِ ، ورَأَيْتُ عِنْدها هاتَيْنِ الكَلْبَتَيْن ، وأَخْبَرْتُها بِخَبَرى ، وأَخْبَرَتْنِى هى بخَبَرِها .. ثم انْضَمَتْ إِلَيْنا هذه السَيِّدَةُ ، حتى أَخذَتْ تقُومُ بِشراءِ الأَشْياءِ لنا .. وهكَذا عِشْنا نحنُ الثَّلاثةُ ، حتى حدثَ ماحَدَثَ وجِئْتُمْ إلى دَارِنا أَيُّها الْخَلِيفَةُ ..

فلمَّا سمعَ الْخليفَةُ (هارونُ الرشيدُ) هذه الْحكايَةَ تعَجَّبَ غايةَ الْعَجبِ وقال مُخاطِبًا صاحِبَةَ الْبَيْتِ :

- هلْ تسْتَطيعينَ إِحْضَارَ تلْكَ الْعِفْرِيتَةِ الَّتِى سَحَرَتْ أُخْتَيْكِ كَلْبتيْنِ ؟

فقالَتْ صاحِبَةُ الْبَيْتِ :

- لقدْ أَعْطَتْنِى شيْئًا منْ شَعْرِها ، وقالتْ لى : إِذا أَرَدْتِ إِحْضَارى فأَحْرِقى شعْرَةً مِنْهُ وسوْفَ أَحْضرُ لكِ فى الْحالِ ..

سأُحْضِرُها حالاً..

وبمُجَرَّدِ أَنْ أَحْرقَتْ صاحِبَةُ الْبيتِ الشَّعْرَةَ ، حضَرَتِ الْجِنِّيَّةُ ، وكانتْ مِنَ الْجَنِّ الْمُسْلِمِينَ ، فلمَا رَأتِ الْخليفَةَ (هارونَ الرشِيدَ) أَلْقَتْ عليهِ السَّلامَ وقالتْ :

- اعْلَمْ أيُّهَا الْخليفَةُ أَنَّ هذه السَّيِّدَةَ قدْ صنعَتْ معى جميلاً



ومَعْرُوفًا ، حيْثُ أَنْقَذَتْ حياتِى وقتَلَتْ عَدُوِّى ، فلما علِمَتْ بما صَنعَتْهُ أُخْتاهَا مَعها سَحَرَتْهُمَا كلْبَتَيْنِ ..

فقالَ لها (هارونُ الرشيدُ) :

- وأنَا أرْجوكِ أنْ تُخلِّصيهما مِنْ سِحْرِهِمَا ..

فقالتِ الْجنيَّةُ :

- سمْعًا وطاعةً أيُها الْخليفَةُ ..

وخلَّصتْهُما فى الْحال مِنْ سِحْرِهما ، فعَادتَا فتاتَيْنِ ، وشكَرَ الْخليفةُ (هارونُ الرشيدُ) الْجنيَّةَ .. ثم قالَ ..

- الآنَ نشْرَعُ فى بَحْثِ شكْوَى هذه السيدةِ التى على جَسَدِها آثارُ ضَرْبِ السِّياطِ .. لابُدَّ أن نَعْلَمَ أوَّلاً منْ فعل بها ذلكَ ، حتى نُحْضِرَهُ ونُعاقِبَهُ ..

فقالتِ الْجِنيَّةُ :

- إنَّ الذى فعلَ ذلك بها أيُّها الْخليفَةُ هو ولَدُكَ (الأمينُ) .. وحكتْ لهُ الْعِفْريتَةُ جميعَ ما جَرى ، فأحْضرَ ولَدَهُ (الأمينَ) .. وسألَهُ عن صِحَّةِ ذلك فلَمْ ينْكِرْهُ ، فأمر الْخليفةُ بزَواجِهِ منها ، أمَّا صاحِبَةُ الْبَيْتِ وأخْتاها فقدْ تزوَّجَتْ كُلُّ واحِدَةٍ منْهُما بأحدِ الصَّعاليكِ ، الذينَ ردَّهُمْ (هارونُ الرشيدُ) إلى بلادِهِمْ وأعادَ كُلاً منْهُمْ ملِكًا على ممْلَكتِهِ ..

(تـمّـتْ)

رقم الإيداع : ٤٣٧٩

الترقيم الدولى : ٥ - ٣٤٩ - ٢٦٦ - ٩٧٧